

## جنكيز خان

سفاح الشعوب .. ذو اللحية الحمراء !

مما لا شك فيه أن حكم الطغاة ثمرة تاريخية لغفلة الشعوب وعدم إدراكها لحقوقها وسوء فهمها لتطلعاتها وعجز قدراتها عن تحقيق أهدافها . ولكن أحداث التاريخ لا تجرى دائماً بما يشتهي المتآمرون ، وليس في علم التاريخ شيء اسمه المصادفة إذ لكل حدث أسبابه كما أن لكل معلول علة ، والقوى ليس قوى بنفسه وإنما هو قوى يضعف الآخريين ، أن الجيل لا يمكن أن يكون جبلاً إلا إذا كان هناك سفحاً .

وكتب التاريخ تحفل بالوقائع الدامية خلال حكم الطغاة ومن يريد أن يستطلع قضايع هذا الحكم عليه أن يقلب صفحات هذه الكتب ليجد أرقاماً لا تحصى من الضحايا والدماء لا يمكن أن توزن أريقت لأبرياء من رجال ونساء وأطفال ، وجنكيز خان إحدى الشخصيات التاريخية الرهيبة التي تركت بصماتها في شكل حماماً من الدم وجماجم من الضحايا وفاقت الشيطان في أضرارها البشرية ، إنها شخصية جنكيز خان المغولي ، خاقان آسيا وأوروبا وسيد السحاب وكبير الأباطرة المغول الرجل الذي ولد وفي قبضته قطعة متجمدة

من الدم ، والذي صرع أخاه عندما أخذ منه سمكة وقتل عمه  
عندما شعر أنه سينافسه في حكم البلاد ، رغم أن هذا العم كان  
له الفضل في حمايته ودرء أعدائه عنه .

وبادئ ذي بدء نسأل أنفسنا سؤالاً ، من هم المغول ؟ وما معناها  
اللغوي ؟ يرى البعض أن المغول كلمة مشتقة من لفظ محلي معناه  
الشجاع ، على حين يرى البعض الآخر أنها مشتقة من اسم زعيم  
ظهر في صحراء جوبي - موطن المغول الأصلي في شمال الصين  
- ظهر بين قبائل المغول ولقد كانت الطبيعة هي المعلم الأول للمغول ،  
حيث كانوا قبائل من الفرسان المترحلين يعيش أفرادها في خيام  
ويتمدون في طعامهم بوجه رئيسي على لبن الخيول ولحومها وكانوا  
يمارسون الرعي والصيد ، وابتدأ تدريبهم على الشؤون العسكرية  
بثورة على حكامهم في إمبراطورية « الكن » التي كانت عاصمتها  
بكين وهي إمبراطورية صينية كانت في القرن الثاني عشر الميلادي ،  
وتعلم المغول من الصينيين الشيء الكثير حتى وصلوا إلى درجة  
من التفوق العسكري لم يسبقهم إليها أحد ، وكان للمؤرخين عدة  
آراء حول أساطير وخرافات المغول والإيهام الذي أحاط بنشأتهم  
ويظهرهم على مسرح التاريخ مما كان سبباً في الغموض والإيهام  
الذي أحاط بجبروتهم وطنينهم ، ولعل أهم صفة التصقت أنهم  
أهل مكر وخداع ولهم باع طويل في الخيانة والدناء .

## ظهور المغول :

لعل القوى السياسية التي عاصرت ظهور المغول واستطاعوا التغلب عليها هي التي سهلت مهمة هؤلاء البرابرة المتوحشين لأن التاريخ يعلمنا دائماً أن سقوط الدول يبدأ من الفساد نتيجة الفوضى وللشقاق وللخيانة التي تتعرض لها هذه الدول ، ولولا أن جنكيز خان وجد حوله قوى سياسية مضعفة ما استطاع النصر عليها قط ، وأهم هذه القوى السياسية التي نذكرها ويهمننا أمرها بصفة خاصة لأنها دمرت على يد المغول ، وعانت على أيديهم هي دولة « خوارزم » وهي دولة إسلامية كانت تشمل بلاد التركستان ، وشمال الهند وفارس ، وكان يحكم هذه الدولة أمراء من الأتراك وقد أمتد سلطانها إلى مساحة شاسعة بين نهر الكنج ونهر دجلة ولكن هذه الدولة كانت مهتلة في أواخر أيامها وكان الصراع بين حكامها على أشده وأصبحت عاصمتها « سمرقند » مقراً للمؤامرات وحتى أشهر مدنها هي بخارى ، وخرقند لم تسلم من التمرد والثورة نتيجة لظلم الحكام ، ولعل أبداع وصف لخال حكام خوارزم يمكن أن يستقى مما كتبه جلال الدين السيوطي المؤرخ المعروف في كتابه « تاريخ الخلفاء » حيث قال :

كان الخلفاء والملوك في ذلك الوقت ما فيهم إلا من هو مشغول بنفسه ، مكب على مجلس أمسه ، يرى السلامة غنيمة ، وإذا عن

له وصف الحرب لم يسأل إلا عن الهزيمة قد بلغ أملة من الرتبة وقنع بالسكة والخطبة ، أموال تنهب وممالك تذهب ، ولا يباليون بما سلبوا .

باختصار يمكن القول أن أعداء جنكيز خان الذين انتصر عليهم لم تكن تربط بينهم رابطة الألفة أو المحبة أو الانتماء لأنفسهم أو لأوطانهم وكان مبدأ التضحية بالنسبة لهم شكلاً لا عقيدة ولذا لم يلبثوا أن تفرقوا أمام المغول .

من هو جنكيز خان :

يعتبر جنكيز خان من أكبر الغزاة والبيعاة الذين بنوا أمجادهم على جثة التاريخ ، ظهر كالإعصار العاصف وعذب البشرية ، وكأنه ينتقم لنفسه ولوالده ، وأحب سفك الدماء الذي قيل أنه كان يحلوه له أن يشرب دماء ضحاياه ، ولعل نشأته والظروف التي أحاطت به تفسر لنا تلك القسوة التي اتصف بها ، وكثرة عدد الضحايا الذين سقطوا تحت أقدام جيشه وسيوف جنده والتي يقدرها بعض المؤرخين بأنها وصلت إلى نحو خمسين مليوناً من الأنفس ما بين قتيل وجريح وأسير خلال ربع قرن من الزمان لم تر البشرية أبشع منه على الإطلاق خلال تاريخها الطويل .

ولقد ولد جنكيز خان عام ١١٥٥م ، وهو ينحدر من سلالة ممتازة من المغول هي سلالة « البورشيكون » تلك السلالة التي

تقول قصص المغول وروايتهم أنها تنحدر من سلالة الآلة التي كانوا يعبدونها ، وكان جد جنكيز خان يطلق عليه « كابل خان العظيم » ولما مات هذا الجد تولى والد جنكيز خان زعامة القبيلة والتي كانت تعرف باسم « التمرجى » وكان هذا الأب يدعى « يسوجاى » الحكيم الداهية .. وكان يحلو له أن يترىض على شاطئ نهر « الآتون » حاملاً صقره على ذراعه وذات يوم رأى أحد أعدائه من قبيلة « الماركت » التى تنتمى إلى سلالة أهل « التندرا » الأشداء ومعه عروسه التى كانت تدعى « هولون » ، وكانت جميلة بشكل أطار صواب يسوجاى فاختطفها من عريسها وتزوجها ، وهذه العروس هى والدة جنكيز خان حيث لم يمض على زواجها تسعة شهور ، وكانت قد حملت بهذا المرعب الذى دوخ التاريخ بأفعاله وقيل إنه يوم مولد جنكيز خان انتصر والده على قبائل الماركت هذه بعد غزوة مفاجئة لقرها وكان ضمن الأسرى زعيم « الماركت » الشجاع ، الذى ظل يقاوم حتى النهاية إلى درجة أعجبت « يسوجاى » ومن ثم عندما بلغ الأب نبأ ولادة ابنه أطلق عليه اسم الزعيم الذى أعجب بشجاعته وهذا الاسم كان « تيموجن » وفى لغة المغول تعنى هذه الكلمة الصلب الثين ، ولقد قيل إنه يوم خروجه من بطن أمه كانت يده تحمل بقطعة كبيرة من الدم المتجمد ، ولما فطمته أمه تغذى على ألبان الخيل والماشية ، وكانت الطبيعة قاسية عليه كما كان الإنسان أشد قسوة مما جعله فى خوف دائم وحذر شديد من كل من أحاطوا

به ، وبدأ يسمع منذ الصغر قصص الحرب وتعلم إجادة الصيد  
والاشتراك فى حلبات سباق الخيل والمصارعة وقذف السهام وكلف  
منذ الصغر بحراسة الخيل ورعى الماشية واستكشاف المراعى ، ثم  
أسندت إليه مهمة المشاركة مع غيره فى مراقبة الأتق من فوق  
الشلال ليخطر القبيلة باحتمالات أى عدوان عليها مفاجئ من  
الأعداء وكان ذلك يعنى تحمل الآم الجوع والحرمان بضعة أيام  
والبقاء على حافة الجبل فى ليلى الشتاء القاسية وسط عواصف  
ثلجية عنيفة ولكن ذلك زاده صلابة وعلمه الصبر ، وقيل إنه كان  
أمر رماة السهام بين المغول ولم يفقه فى هذا إلا أخاه الشقيق  
« كاسار » ، ولقد تميز جنكيز خان - كما هى صفات كل الطغاة  
- بالذكاء والخيت والمكر والدهاء واشتهر بين أقرانه برسم الخطط  
وانفرد من دونهم بفكرة رهيبة هى أن الحياة للقوى وحده والموت  
والاحتقار للضعيف ، لم يتعلم جنكيز خان فى مدرسة ولذا لم يكن  
يعرف القراءة أو الكتابة ولكنه تعلم فى مدرسة الحياة ، وكان  
جنكيز خان ذا عينين رماديتين تميل إلى الزرقة وجبهة عريضة  
وشعر أحمر مسترسلا جدائل طويلة وراء كتفيه ..

ولعل أول صدمات الحياة التى واجهت جنكيز خان وهو صغير  
هى موت جده مقتولاً بالسهم حيث دس له السم إمبراطور الصين  
ثم مقتل أبيه غدرًا على يد بعض القبائل المعادية وكانت الصدمة  
الثالثة هى انتزاع الزعامة من أسرته وتخلل أتباع أبيه عنه حيث

أجمع زعماء القبيلة عقب مقتل أبيه وانتخبوا منهم زعيمًا جديدًا ..  
وأحس جنكيز خان بثقل الحياة وبدأ يرتعد من المستقبل الغامض ،  
الذى يحيط به وشعر بصيحات الثأر تردد فى عنف داخله وأحس  
بالكراهية لأولئك الذين تخلوا عنه بعد وفاة والده وتجيء الصدمة  
الخامسة عندما يشعر أن أخاه غير الشقيق « بايكتار » يطمع فيه  
فقام من شدة غضبه بقتله وهنا خاصمته أمه مما أثر على نفسيته  
تأثيرًا كبيرًا حيث قالت له عقب أن ارتكب جريمته :

« إنك وكاسار - نقصد أخاه الشقيق - كالكلاب الجائعة  
تنقض على كل ما تلقاه ، والأفاعى تزدد ما يقابلها حينًا ، والذئاب  
تهش ما تصادفه فى خلال العاصفة ، أما كان الأولى أن توجه  
السهم إلى صدور أعدائك » ، وكان خصام الأم الذى طال أكثر  
من سنة له دور كبير فى نزعات الشر التى شكلت شخصية  
جنكيز خان فيما بعد ، وتجيء الصدمة السادسة عندما يتمكن  
أعداؤه من الماركت من أسر زوجته التى كان قد تزوجها من قبيلة  
« أولوهوارد » المغولية وكانت تتمتع بجمال فائق .. ذات وجه  
نضير ونهد بارز وقد مياس واسمها « يورتاي » ، أسرها أعداؤه  
وكانهم يعيدون مسرحية خطف والد جنكيز خان لعروسه هولون  
أم السفاح ، وإن كان جنكيز خان قد استعاد زوجته فيما بعد  
إلا أن هذه الحادثة كان لها تأثير مسمى على أعدائه من قبائل الماركت  
والذين لم يسلموا من سيفه عندما ضحك له القدر واتسم له الحظ

وتحالف معه ، أما الصدمة السابعة التي أثرت في شخصيته فهي حصار عدوه اللدود « تارجوناي » زعيم قبيلة « التايدجوت » المغولية لأسرته في الجبال وإجبار أفراد الأسرة على تسليمهم جنكيز خان أسيراً نظير فك الحصار حيث قيده بالسلاسل وروضوا في رقبته نيراً ثقيلاً وسجنوه ، ورغم نجاحه في الهروب فيما بعد إلا أن قسوة أعدائه في معاملتهم له جعلته يفقد معاني الرحمة في معاملته للآخرين ولعل هذه الصدمات كلها قد قتلت روح الحياة داخل نفس جنكيز خان وجعلته يشعر بالأنانية المفرطة وأعطته مقاييس عدائية للتعامل مع البشر .

وابتسم الحظ لجنكيز خان بعد أن فر من الأسر وبدأ يجمع حوله بعض الأنصار وكان هربه أسطورة لدى قبيلته مما جعل الكثيرين من الشباب يسعون وراءه ، ورأى هو أن يتحالف مع عمه طوغرل خان حيث كون له جيشاً بلغ ثلاثة عشر ألف فارس أخذ يدر بهم على فنون الحرب ويعلمهم أسرارها وشاعت أسطورة بين قبائل المغول تنبئُ بخروج عاجل عظيم يوحدهم ويفزوا بهم العالم ، وأخذ المتشدون في كل مكان يتغنون بقرب ظهور هذا العاهل العظيم ، وقد غذى جنكيز خان هذه الأسطورة معلناً أن السرفى ضياع المغول وخضوعهم لغيرهم هو أنهم رُحُل وأن المغول يمكن أن يسودوا العالم لو اتحدوا وأن القوة وحدها لها الغلبة بين البشر ، ويقواته المدرية دخل جنكيز خان أول معاركه ضد قبائل « التايدجوت » عرفت باسم

معركة المركبات لأنه أخذ من العربات ستاراً للدفاع عن جيشه وجنوده ولم يكده ينتصف الليل حتى خرج منتصراً حيث ألقى بزعيم القبيلة « تارجوتاي » وعدوه اللدود في إناء من الزيت المغلي وقتل كل أسراه ولم تلبث قبائل المغول أن تقدمت عن خوف ورهبة لإعلانها الولاء له وبذا توحدت قبائل المغول كلها تحت قيادته ولما أحس بأنه في غنى عن تأييد عمه طوغرل خان قام بقتله بلا رحمة وأصبحت كل صحراء جوبي في قبضة يده وأعلن لمن حوله : « لقد علمنا كبارنا أن القلوب المتنافرة والعقول المختلفة لم تجمع في جسد واحد غير أني عازم على تحقيق هذه الغاية بعد فرض سلطاتي على كل من حولي » .

ومضى لتحقيق هذا الهدف تارة بالسياسة وتارة بالكياسة ومرة بالوعيد والتهديد وأخرى بالمهود والوعود وتلفت حوله لأبناء عمومته من التتار حيث دخل معهم في تحالف ، وبذا تهيأت له الفرصة لتكوين جيش قوى شاعت حوله الخرافات بأنه جيش لا يقهر وأن الأبالسة تحارب معه وأن القسوة تجعل من الأفضل لأعدائه أن يستسلموا له وقد جاء في وصف هذه الخرافات لجيش جنكيز خان : « أنهم يطعمون لحم البشر ولهم جماجم من نحاس وأسنان من صخر وقلوب من فولاذ ، تقذف أفواههم الحمص وتشرب خيلهم الندى ، لهم أجنحة كالطير » وقد اختلفت تقديرات المؤرخين حول عدد جنوده ، ولكنه بلا شك كان لا يقل عن المائة

ألف وبعد غزوة الصين زاد العدد إلى ما يقرب من ربع مليون جندي .

ليس من المبالغ فيه أن يطلق على جنكيز خان أنه السفاح الأعظم في تاريخ الجنس البشري لأنه كان يبيد المدن ويسويها بالأرض وينهب الثروة ويقتل الناس ويجز الرقاب معنوياً ومادياً وقد اعتمد على تشييت عقلية خصمه بمفاجأته ومباغتته وكان وحده يحصل على ثلث الغنائم في البلاد المفتوحة ويترك الثلثين لقواده وجنوده حيازة كل ما يشتهون .

كانت إمبراطورية الصين هي أول قوة سياسية هرمة سقطت تحت أقدام جنكيز خان سنة ١٢١٤م ولم يمكث جنكيز خان في قصور الصين ولا مدائنها التي فتحها بحد السيف ووطأتها سنابك خيله بعد أن قتل منهم ما يقرب من نصف مليون لكنه عاد إلى بلاده في صحراء جوبي واتخذ من مدينة « قره قورم » عاصمة له ورفع شعاراً لإمبراطوريته « إن في السماء قوة الشمس أما على الأرض فقوة الخان » وحمل وهو في سن الثامنة والأربعين لقب جنكيز خان ، أي مبعوث السماء وأصبح هذا الاسم يترجم إلى أنه « أعظم الحكام وإمبراطور البشر أجمعين » ، وانتخب من رعاياه سنة ١٢٠٦م ( ٦٠٣هـ ) بلقب السيد الأعلى ورب القوة والبطولة ، ومقر عاصمته « قره قورم » ومكانها - الآن - منغوليا .

وجاء الدور على إمبراطورية خوارزم الإسلامية ، وقد أرسل جنكيز خان بعض رسله إلى الإمبراطور خوارزم ، ولكن هذا بغية قتل الرسل ، وصحيح أن جنكيز خان كان سيقوم بغزو خوارزم سواء وقعت هذه الحادثة أم لم تقع ، ولكنه بعد وقوعها إزداد مرارة واشتياقاً للانتقام الرهيب ، ولقد وصف مؤرخ معاصر ما حدث للمسلمين في خوارزم على يد جنكيز خان وذلك المؤرخ هو ابن الأثير في كتابه « الكامل في التاريخ » حيث قال : « من يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين ومن الذى يهون عليه ذكر ذلك ، فيألت أمة لم تلدنى ويألتنى مت قبل هذا وكنت نسيًا منسيًا .. لقد شقوا بطون الحوامل وقتلوا الأجنة وقتلوا النساء والرجال والأطفال . » وصورة الهجمة الشرسة للطاغية جنكيز على المدن الإسلامية هي أخطر ما قام به الطاغية المغولى فى حياته .

ولن يستطيع قلم أديب برومانسية أو فى شكل الدراما الإنسانية أن يصف ما حدث من قوات جنكيز خان للمدن الإسلامية فى دولة خوارزم ، كما أن ذكر التفاصيل تصيب النفس البشرية بالتقزز والغثيان وتجعل اللعنة تخرج من ألسنتنا لتنصب على قبر جنكيز خان .

لقد دمر المغول بقيادة جنكيز خان مدينتى : لاهور ، ومولتان تمامًا وسويتا بالأرض وتركوا كل شىء يبابًا خربًا ، وكان فتح « بخارى » يومًا أسود فارقت فيه الأمهات أولادهن والزوجات

بعرضن والعذارى آباءهن وأخذن جميعاً لمصير مجهول هو الخضوع لشهوات بهيمية من جند قساة لا تربطهم بالإنسانية رابطة ولا رب لهم إلا الشيطان ، وأحرقت المدينة بأكملها ، وقتل رجالها وترك الأطفال فى العراء مشردين طعاماً للذئاب والوعول ، وحملوا إلى صحن المسجد الكبير فى المدينة عدة صناديق تحوى نسخاً كثيرة من القرآن الكريم ، وداسوها بحوافر خيولهم واحضروا قرب الخمر والمغنين إلى المسجد ، وأخذوا يشربون ويطربون وكبار رجال المدينة وعلماءها - قبل أن يقتلوا - يمسكون بعنان الخيل إمعاناً فى إذلالهم وأترا بعلف الخيول لإطعامها داخل المسجد ، وأمر جنكيز خان بعد ذلك بجمع سكان المدينة وخاطبهم قائلاً :

« إبنى نعمة الله على الأرض ، ولا بد أنكم تستحقون العقاب لأن الله ساقنى إليكم وهنا أدرك مسلمو بخارى بعد فوات الأوان أن الاخلال والفوضى الاجتماعية وعدم التمسك بشرعية الله هى سبب ضياعهم ، لأنه بلا شك يصدق قول « ومن أعمالكم سلب عليكم » ، ثم قام جنكيز خان بسلب أموال بخارى وكنوزها وطلب من أهلها مغادرة المدينة لا يحملون معهم إلا ثيابهم التى يلبسونها ، ويصف ابن الأثير سقوط بخارى قائلاً : « وكان يوماً عظيماً من كثرة البكاء من الرجال والنساء والولدان وتفرقوا وتمزقوا كل ممزق واتسم المغول النساء ، وأصبحت بخارى خاوية على عروشها » ، وحدث لسمرقند ما حدث لبخارى من نهب وسلب

يسى النساء وقتلوا من لم يصلح للسبي منهم وفي مدينة نسا في خراسان قتلوا من أهلها سبعين ألفاً أما الرى فقد قتل المغول كل سكان المدينة بل وانقلبوا على بعض الموالين لهم الذين سهلوا لهم فتح المدينة والاستيلاء على قلاعها .

### مدن الأحزان الإسلامية :

لقد كانت هناك مدناً إسلامية خربت تماماً ، وخربت عن آخرها ودمرت جمادها وحيوانها وانساها على يد جابرة التاريخ بقيادة لطاغية المغولى جنكيز خان عدو البشرية رقم واحد ، نذكر من هذه المدن مدينة « ترمذ » الإسلامية إحدى مدن دولة خوارزم ، حيث شق المغول بطون كل سكان المدينة الأحياء منهم والأموات سبب أن امرأة أرادت أن تنجو بنفسها فادعت أنها تملك جوهرة ثمينة بلعتها آملّة أن يأخذوها أسيرة حتى تضع هذه الجوهرة ، ولكنهم شقوا بطنها وشقوا بطون كل النساء ورجال وأطفال المدينة ظانين أنهم يخفون كنوزهم داخل بطونهم ، أما المدينة الثانية من مدن الأحزان فهي « مرو » والتي خان حاكمها أهل المدينة ، وقام المغول بتقسيم سكانها ثلاثة أقسام الرجال والنساء والأطفال ثم أجبروا الرجال على الرقاد مشبكون أذرعهم وراء ظهورهم ، ووزعهم في شكل حصص على جنودهم حيث قام كل جندي ببيع حصته ، وابقوا على تجار المدينة وكان عددهم ستمائة ، ثم بدؤوا تعذيبهم

بأبشع ألوان التعذيب ، لكي يعترفوا عن أماكن كنوزهم وأموالهم  
المخبأة ، ولم يبقوا من هؤلاء التجار أحياء إلا على أربعة فقط لحاجة  
الجيش إليهم ، ومن اختبأ من السكان عاش بلا مأوى وبلا طعام  
أو شراب ، حيث مات جوعاً أو أنتظر موته على يد الذئاب ،  
التي كانت تشم رائحة الغزو المغولي ثم تكمل عملهم الدنيء حيث  
تقضى على مابقى من الأحياء ، وقد لحق ذلك القدر بعدة مدن  
على التوالي ولما تراءى لبعض السكان فى إحدى تلك المدن إنقاذ  
حياتهم بالرقادين جث القتلى تنبه المغول لتلك الحيلة التى اكتشفوها  
على يد أحد الخونة ، ومن ثم صدرت الأوامر بضرورة فصل  
رعوس الأهالى عن أجسادها عند الغزو ، لقد استخدموا كل حيلة  
ماكرة وكل طريقة خادعة وكل وسيلة خبيثة لاستئصال البشر .

ومن تلك الحيل أنهم أرغموا أحد المؤذنين من أسراهم قبل أن  
يقتلوه أن يعتلى المذبة وينادى للصلاة فخرج من الأهالى من كان  
مخبتاً ظاناً أن المغول قد فكوا الحصار ، وتركوا المدينة فما كان  
من الطغاة إلا أن حصدوهم عن آخرهم وبلا رحمة والضحكات  
الشرطانية تخرج من أفواههم وكأنهم فى حفل عرس .

أما مدينة « ياميان » فقد ظلت خالية من السكان لمدة خمس  
سنوات بعد أن ذبح جنكيز خان كل مخلوق بشرى ضمته جدران  
المدينة ، وأمر بهدم قصورها ومساجدها ومنازلها وقلع زرعها ،

وكان ذلك لأن المدينة قاومت سكان الحصار وجاء سهم إلى أحد  
أحفاد جنكيز خان الذى كان يحاصر المدينة فأرداه قتيلاً .  
وبعد أن أباد جنكيز خان معظم سكان مدينة « هراة » سأل  
إمامها قائلاً :

« هل يبقى اسمى خالدًا بعد موتى » قال هذا الإمام « يبقى  
اسم الإنسان مابقى هناك سكان » .

ولكن إحقاقًا للتاريخ نقول إن سلطان خوارزم لم يقف مكتوف  
الأيدى - رغم أنه كان السبب الرئيسى فى انحلال دولته - بل  
قاوم ولكنه لم يستطع فحمل راية الكفاح وولد جلال الدين ولقد  
أعجب جنكيز خان بشجاعة جلال الدين قائلاً عنه : « سعيد من  
يلد مثل هذا الابن » .

ولقد اعتاد المغول قبل مغادرتهم أى مدينة إسلامية أن يحرقوا  
ما تبقى من غلال فيها أو محاصيل أخرى حتى يطمئنوا إلى أن  
من غابت عن رقبته سيوفهم مات جوعًا ، وفى خوارزم وهى  
آخر مدن الأحران الإسلامية التى شاء قدرها أن تقع فى يد المغول  
حاصروها ستة أشهر ، وقد تكبد المغول خلال ذلك الحصار خسائر  
جسيمة ومن ثم قاموا بعمل يشع حيث فتحوا السد الذى كان  
يحجز مياه نهر جيحون عن المدينة فسرت المياه لتغرق البلدة ،  
وتهدمت أبنيتها على من فيها وبقي موضعها ماء ولم يسلم أحد

من أهلها وهكذا تحول مجرى النهر عن طريقه الطبيعي مما حير الجغرافيين مدة طويلة .

لقد كانت حروب المغول الوثنيين ضد المسلمين مذامح بشرية يحركها إنسان معقد نفسياً وتحكم عقليته المريضة رواسب من الأحقاد والكراهية لكل لبشر ، وكان من تبقى على الحياة بعد تلك المجازر يعيش معطم الروح يختبئ خوفاً من عودتهم وبلغ بالناس الذعر حدًا جعلهم يخشون مغادرة هذه المخابىء حتى تصل الذئاب لتنهش جثث القتلى .

لم تكن الرحمة ديدنه وطالما حذر قواده أن تعرف قلوبهم الرأفة مع خصومه سيلاً مؤكداً إن الطغيان والبطش وحدهما كفيلا بإخضاع أعدائه وإذلالهم وموضحة لهم أن العدو المهزوم لن يرضى بالخضوع المطلق إلا في ظل الخوف ، ولكنه نسى أن من السهل أن يغزو الإنسان بحد السيف ولكن لن يمكنه الحكم إلى الأبد بنفس الطريقة ..

ولكن هل توقف المغول عن غزواتهم بعد سقوط إمبراطورية خوارزم الإسلامية .. كلاً بل لقد استمرت الفتوحات في ميادين أخرى للحصول على غنائم جديدة وكانت روسيا هي أهم هذه الميادين . لقد اشتهر جنكيز خان بأنه أحد الفاتحين القلائل الذين نجحوا في غزو روسيا ولعله بهذا التفوق على زميله في الطغيان نابليون وهتلر

اللذان فشلا فى تحقيق ذلك الحلم ، لقد اندفع جنكيز خان نحو بحر قزوين ، ثم جوبا ، حتى لاهور وانطلقت جحافلها نحو روسيا ، ولما تصدت له قوة روسية آتية من « كييف » أبادها جنكيز خان نهائيا بل لقد أسر غردندوق « كييف » نفسه ، وهكذا ظهر المغول على الشواطئ الشمالية للبحر الأسود ، وذعرت القسطنطينية ، ولما حاولت روسيا جمع جيشها من جديد بلغ تعداده حوالى ٨٢ ألف مقاتل لم يستغرق إبادة من الخان أكثر من أيام فقط بعدها دانت كل روسيا تقريباً لجنكيز خان ، بل لقد واصل المغول فيما بعد زحفهم حيث استولوا على بولندا ونهبوها وأيضاً المجر ..

وفى آخر غزوات جنكيز خان .. قتل فى معركة واحدة فى منطقة الصين الغربية نحو ثلثمائة ألف رجل .

المؤرخون . . و جنكيز خان :

من البداية نحن لا نتفق مع وجهة نظر بعض المؤرخين العسكريين إلا فى بعض النقاط التى منها :

١ - أن جنكيز خان استخدم الكثير من التجار والمترجمين فى أعمال الجاسوسية وأنه أول من أنشأ فرق العاصفة فى التاريخ التى أهم وظيفة لها الضربة المفاجئة للعدو ولقد عرفوا عن أعدائهم أكثر مما عرف عنهم أعداؤهم .

٢ - أن انتصارات المغول تعود إلى أنهم تعلموا من أخطائهم  
وإلى أنهم تعلموا وتربوا في عالم التجربة اللا محدود وحصلوا على  
زاد من المعرفة العملية التجريبية .

٣ - أنهم توارثوا حكمة قذف أولادهم إلى سفينة الحياة .

٤ - أن جنكيز خان استعان بمجموعة من المستشارين العسكريين  
أفادوه تمامًا ورسوا له الكثير من الخطط العسكرية .

وغن لا ننكر أن أعمال جنكيز خان من حيث الإدارة  
والحكم والقيادة لازالت سرًا لم يمط اللثام عنه حتى الآن ولغزًا  
يحتاج إلى كثير من الدروس والبحث والفكر العميق ولكن  
لم نستطع بأي حال من الأحوال أن ننكر عليه شدة حراسه  
وحدة ذكائه ولكن أيضًا فلنسمع ونقرأ ما يقوله عنه الجنرال  
الأمريكي « دوجلاس مكارثر » الذي اشتهر باسم قاهر اليابان  
في الحرب العالمية الثانية .. قال : « ولو بحث جميع أخبار  
الحروب من صفحات التاريخ ما عدا أخبار جنكيز خان لبقى  
لرجال الحروب معين لا ينضب من أنفس المعلومات عن تعبئة  
الجيوش وتنظيمها ، ومهما تغيرت أسلحة القتال فلا بد من الرجوع  
إلى الماضي ومطالعة كتب التاريخ ليحذق الجندي فنون الحرب  
ومبادئها الأساسية التي لا تتغير ولن تجدها ممثلة في غير مسيرة  
إمبراطور المغول منذ سبعمائة عام .

رأى صيني :

ويرى الكاتب الصيني « ف . يان » حامل جائزة ستالين للسلم « أن من الخطأ الشائع أن يقال إن جيش المغول كان جيشًا من الممّج بهاجم كما تهاجم قطعان الذئب بلا نظام ، والحق أن جيشهم كان منظمًا تنظيمًا دقيقًا يفوق غيره من الجيوش وكان لتخاذل أعدائهم وانحلال الملوك من حولهم والغرور وجو الملق والضعف الذي انقسموا فيه والفساد والترّف سببًا مساعدًا على انتصار جنكيز خان .

ونحن وإن كنا نحفظ على الجزء الأول من كلام الكاتب الصيني إلا أننا نتفق معه تمامًا في الجزء الثاني من عباراته ، والذي لا شك فيه أن جنكيز خان نجح في استقطاب قادة جيشه ، أخلصوا له ونفذوا أوامره ، نذكر منهم سابوتى الحكيم الذى قال عنه المؤرخ الحربى ليدل هارت إنه أعظم القادة العسكريين فى التاريخ كله وسماه المعصوم من الخطأ وتكلم فى كتبه عن معاركه الظافرة فى إيران ، وجورجيا ، والقوقاز وجنوب روسيا ، وبلغاريا وكان ضمن قواد جنكيز خان « موهولى » المحنك « وشبيه نوبون » النارى المدفع وبرشو الأمين ، ولكل منهم فى ساحات القتال سجل رهيب من الإرهاب والقسوة وسفك الدماء .

ولا يفوتنى هنا أن أذكر أنه تظهر فى حياة كل طاغية شخصية معاونة تدفعه إما إلى مزيد من السلبات ، أو تحاول

أن توقفه عند حدود لا يتعداها في طغيانه أو أن تهيب له القيام ببعض الإيجابيات ، ولقد كانت شخصية « بليو تشوتراي » هي اللمحة الإيجابية في حياة جنكيز خان ، وهو سياسي عنك كان في خدمة إمبراطور الصين ووضع نفسه في خدمة جنكيز خان ، وقد استطاع هذا السياسي أن يروض نسيباً من شراسة المغول وقيل إنه أنقذ من التدمير مدناً لا تحصى ومنتجات قيمة لا حصر لها ، ودأب على جمع السجلات والمخطوطات والنقوش إلى درجة جعلت بعض المؤرخين يطلقون عليه أعظم أبطال السياسة في التاريخ ، ولقد كان « بليو » عبقرية جريئة إلى جانب عبقرية سياسية ، ويعزى إليه الفضل فيما استتمت به الأداة الحربية المغولية من قدرات خاصة .

#### نهاية الطاغية :

في عام ١٢٢٧م توفى جنكيز خان عن ٧٢ عاماً بعد أن امتدت إمبراطوريته من المحيط الهادئ إلى نهر الدنيبر على أنها شأن كل الإمبراطوريات التي أسسها الرحالة الرعاة كانت قبل كل شيء إمبراطورية عسكرية وكانت هيكلاً وإطاراً أكثر منها نظام حكم وكانت تتمركز حول شخصية العاهل أكثر من أي شيء آخر وكانت علاقتها بجموع الشعوب التي حكمتها علاقة ضرائب تجبي فقط .

لا ننكر أنه كان بسيطاً في حياته ولم يكن يميزه عن رجاله سوى قرط ثقيل من الذهب ، يتدلى من أذنه وحصانه الأبيض ورايته البيضاء ، التي جعلها عنواناً لسلطوته وسلطانه وعليها ذبول تسعة وعول ، ولم يعرف عنه الإسراف في طعام أو ملاذ وقد أثر عند قوله : « إياك .. إياك .. وشرب الخمر أكثر من ثلاث مرات فإن استطعت فمرتين أو مرة ، ويمسح إذا لم تذق الخمر على الإطلاق » ، وإذا كان لجنكيز نسبة فضائل فإنها لا تتعدى ٢٠٪ من تكوين شخصيته ، والبقية كانت كلها قيماً مرفوضة من عدالة السماء ومن قوانين الرحمة ، لقد كان عنصرياً حيث قال : « إن غاية ما أتمناه هو رفع شعبنا إلى مرتبة السيادة على العالم » وقال عن نفسه « فليتحب العالم لكى يسعد جنكيز خان » « ... » يجيا السيف ... تحيا الحرب ويكفى أن نقول إنه كان معقداً نفسياً مليئاً بالكراهية وحب سفك الدماء .. وأثناء مرضه الذى أدى به إلى الموت أمر بتدبير مؤامرة لقتل ألد أعدائه عندما كان فى زيارته ولم يحترم وعود الصلح ولا كلمة الشرف لتوفير الأمان له ، وهكذا من طباع الطغاة وصفاتهم الغدر والأنانية .

مات وهو يحس بالوحدة والألم والحزن على ولده البكر الذى توفى فى برارى روسيا ، ويكاد الرحالة الإيطالى ماركو بولو وحده دون جمهرة الكتاب الذين أرخوا لجنكيز خان هو الذى ينفرد

بالقول إن الخان قد مات متأثرًا بجراحه عقب إصابته بسهم في ركبته أثناء حصاره لإحدى القلاع في إقليم « سونج » الصينى ولكن معظمهم يجمعون على إن موته جاء إثر مرض أضطره للاعتكاف فى خيمته وذلك حزنًا على أن ابنه مات قتيلًا بيد أخ جنكيز خان أى أن العم قتل ابن الأخ ، مات جنكيز خان واستغرقت عملية دفنه نحو مائة يوم فى جبل « الطاي » وقتلوا كل من صادفوه من إنسان أو حيوان وهم فى الطريق إلى دفنه من منطلق عقيدتهم التى تقول إن كل من يقتلونه يصير خادمًا للراحل فى الحياة الأخرى ، ويقال إن قبيلة بأكملها قد عفيت من الخدمة العسكرية أنيط بها مهمة العناية بالمقبرة وأن البخور ظل يحترق بلا انقطاع .

لقد عاش جنكيز خان حياة مليئة بالدسائس والقلق والتآمر ، لم يصادق أحدًا ولم يثق فى أحد ودفع ثمن جزء صغير من آثامه وأخطائه وخطاياہ ، ولكن مما لا شك فيه أن الشياطين كلها حزنت وأعلنت الحداد على فراقه ، ولكن أيضًا فإن البشرية قد ارتاحت منه وستظل لعنة التاريخ تلحقه يوم ولد ويوم يموت ويوم يعث حيا .